التجربة الدينية
من وجهة نظر الفلسفة البراغماتية

ا.م.د. قاسم صاحب عبد الحسين
جامعة واسط – كلية الآداب
قسم الفلسفة

الملخص:

يعد موضوع التجربة الدينية أو (التجربة النفسية)، من المواضيع التي تؤثر في جوانب عديدة من حياة وشخصية الانسان، وهي تجربة ذاتية، والتي يقرر الانسان فيها التواصل مع واقع متعالي، لقاءاً أو اتحاداً مع عالم اللاهوت. ظهرت البراغماتية على يد الفيلسوف تشارلز سندر بيرس، الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للمذهب، ثمّ خلفه وليم جيمس، ومن ثّم جون ديوي. جاءت لفظة البراغماتية من اللفظ اليوناني (Pragma) والتي تعني العمل، أي فهي الفلسفة العملية، وتجعل من العمل مبدءاً مطلقاً.فـ (جيمس) يلخصّها، حيث يقول: ان تصورنا لموضوع ما هو تصورنا لما قد ينتج عنه من نتائج عملية. تطرق (بيرس) في التفكير الميتافيزيقي، إلى مسائل ثلاث أساسية هي: (الله) و(النفس) و(الخلود) ومصيرهما. فأنطلق بيرس ان فكرة (الله) هي فكرة مشخصة وصاحب قدرة قادرة، أما فيما يتعلق بالنفس هي وحدة غير منقسمة، أما في مسألة خلود النفس فانه لم يقرر رأياً ثابتاً فيها. أما (جيمس) ان الأساس الذي اتخذه في تبريريه للعقيدة الدينية، وكذلك لتقريريه لوجود جوانب في الطبيعة الانسانية، وفي تقريريه لوجود (الله)، أساس يعتمد إلى حدّ كبير على التجربة الذاتية. فـ (جيمس) يدرس الدّين على ان واقع سيكولوجي داخلي ويقيمه على أساس نتائجه العملية وليس على أساس منابعه. أما موقف ديوي من الدّين وهو في رأيه: قوة عليا غير منظورة، من قبيل الغيب. أما التدين حسب رأيه هو: ظاهرة اجتماعية خاضعة للثقافة والحضارة، بمعنى كل انسان يولد في مجتمع ما له دّين وكذلك له طقوس خاصة به. البحث: التجربة الدينية من وجهة نظر الفلسفة البراغماتية، يسلط الضوء على التجربة الدينية، عند ثلاث فلاسفة: وهم تشارلز سندرس بيرس ووليم جيمس وجون ديوي، ويعالج البحث أيضاً موقف البراغماتية من موضوع أساسي في الميتافيزيقا وهو التدّين وكذلك ايمان الانسانية بالإله.

المقدمة:

ان من أهم المكونات التي تتحكم في الانسان وتؤثر في شخصيته وحياته ككل هي

التجربة الدينية،، لذلك انبرى البحث فيها لمجموعة من الفلاسفة البراغماتيين وبالتالي لطرح وجهة نظرهم بالنسبة اليها أي التجربة الدينية. وأقطابها الثلاثة وهم كل من تشارلز سندر بيرس (١٨٣٩- ١٩١٤)، الذي ابتكر اسمها ووضع الأساس لها، أما وليم جيمس (١٨٤٢- ١٩١٠)، فقد أقام ببنائها، أما جون ديوي (١٨٥٩- ١٩٥٢) ، فقد أكمل بنائها وجمّلها، أي أضاف عليها اللمسات الأخيرة لها.

البراغماتية pragmatism انها مذهب تجريبي يتخذ القيمة العملية، أي النجاح، معياراً للحقيقة.وفي العلم لا يسلّم هذا المذهب بصحة قانون ما، أو نظرية ما إلا إذا أمكن استخراج تطبيقات عملية من هذا القانون أو من هذه النظرية. وعليه تعتبر ديانة ما صحيحة حين تعود بالنفع الأخلاقي على من يعتنقها. البراغماتية انها تعالج مسألة الدّين على انه جانب من جوانب النفس الإنسانية الذي يمثل أحد رغباتها الهامة التي يجب أن تشبع عن طريق الإعتقاد، لا على انه حق يجب الايمان به. بيرس كانت نظرته الى الدّين عبارة عن إعتقاد، وأساس هذا الإعتقاد هو تكوين عادة، بحيث الانسان يشعر بوجودها، ويستطيع ان يمارسها فعلاً أو امكاناً، وان يكون على استعداد للقيام بما تقتضيه من عمل. ولكي تتمسك ببعض المعتقدات فلا بد من اختيارها، بوضعها على محك التجربة. تتخذ عناية جيمس الموروثة بقضايا الدّين موضعاً مركزياً في فكره عبر كل حياته، ويدرس الدّين على انه واقع داخلي نفسي ويقيّمه على أساس نتائجه العملية وليس على أساس منبعه ومصدره. أي بمعنى يحق للنفس الانسانية في الاعتقاد. أما ديوي كان شغله الشاغل هو تغيير القيم في المجتمعات الانسانية، منها الاخلاقية والدينية والجمالية والسياسية وغيرها من القيم. ولهذا سمّي مذهبه بالمذهب الأداتي لأنه يتخذ من الفكرة أدة للعمل. أما الدّين الذي كان يدعو اليه فهو دّين طبيعي، أي دّين الإنسانية، لأنه كان انسانياً بمعنى الكلمة، وكذلك فلسفته إنسانية، فالدّين قوة عليا غير منظورة، من قبيل الغيب، وما كان كذلك فلا سبيل لنا إلى معرفته، وإنما نعرف فقط أشخاصاً متدّينين، ولهم تجارب دينية، ويبدو في سلوكهم مظاهر خاصة من اداء طقوس شعائر. وذلك عبر ثلاث مطالب: المطلب الأول: مفهوم الدّين عند تشارلز سندرس بيرس. المطلب الثاني: وليم جيمس والتجربة الدينية. المطلب الثالث: موقف جون ديوي من الدّين. وأخيراً قائمة بأهم المصادر والمراجع.

مفهوم الدّين عند تشارلز سندر بيرس : يعتبر بيرس (١٨٣٩- ١٩١٤) مؤسس الفلسفة البراغماتية، وهو فيلسوف من أميركا الشمالية وترعرع في مدينة كامبردج مما أتاح له الاتصال بأدمغة ذلك الزمان وخصوصاً أن والده كان عالم فلك ورياضياً شهيراً. وعمل في مجال مراقبة الأفلاك دون أن يهمل دراسة الفلسفة التي كان يدرسها في جامعة هارفرد، وكذلك المنطق الذي كان يدرسه في جامعة جون هوبكنز، في عام ١٨٦٧ أنتخب عضواً في

الأكادمية الوطنية للعلوم. ومن مؤلفاته: كيف نجعل أفكارنا واضحة، ودراسات في المنطق عام ١٨٨٣، والهندسة المعمارية للنظريات عام ١٨٩٠، ما الذرائعية عام ١٩٠٥.[١] فهو الذي خلق الفلسفة البراغماتية خلقاً، ويعد أول فيلسوف أمريكي يخرج على العالم بفكر جديد يبلور فيه الحياة العقلية. أما البراغماتية مذهب يضع فكرة العمل مبدءاً مطلقاً وأن كانت هذه الكلمة قديمة إلا ان المعنى المعروف لها الآن عندما أدخل بيرس في مقاله (كيف نجعل أفكارنا واضحة) أي أننا لانعرف على وجه التحقيق ما هي الكهرباء في حد ذاتها أي بمعنى ان فكرتنا عن الكهرباء غامضة، ولكن هذا الغموض سوف يزول إذا وجهنا نظرنا إلى ما تحققه من أغراض عملية ... المهم أن معنى الكهرباء يتردد بالنظر إلى آثارها التي نلمسها في تجربتنا اليومية. وكذلك فيما يتعلق بفكرة الثقل وغيرها من الأفكار.[٢] فقيمة فكرة ما تكمن في نتائجها العملية. فمعيار الحقيقة هو مطابقة الواقع، بل قيمة الفكرة، وما يترتب على التسليم بها من نتائج عملية، أي مادام المعنى الوحيد للفكرة إنما هو ذلك المعنى العملي.[٣]

تطرق بيرس في حقل التفكير الميتافيزيقي، إلى المسائل الأساسية هي: الله والنفس والخلود ومصيرهما. انطلق بيرس في مسألة (الله)، من أن (الله) فكرة مشخّصة وصاحب قدرة قادرة. ووضع عدّة براهين على وجوده، وسوف نشير باختصار إلى ثلاثة طرق هي:

أ ـ أن التنوع الحي في الكون والتلقائية التي نجد أعلى تعبير عنها في الشخصية الانسانية، سيساعدنا على ان نرى تلقائية لا متناهية، إن كان في الكون أو في الحياة.

ب ـ إن نظام الغائية الدينامية (الحركية) موجود في العالم، وإن الطريقة التي أعدّ بها العقل الانساني لكي يفسر أمور الطبيعة ويتنبأ بها من خلال فروض العلم، إنما تكشف عن هذه الغائية، أضف الى ذلك عملية التكيّف القائمة بين العقل والعالم، فلا بد من وجود عقل مطلق يتولى خلق الأشياء وتطويرها، وكذلك وجود قوة قائمة سمحت لعملية التطور هذه ان تتم. فالكون أتجه من العماء إلى النظام الحاضر.

ج ـ عندما تفكر في فرض الله، باعتباره ينبوع الكون الخلاق، نرانا مسوقين بالتدريج إلى قبول هذا الفرض على انه التفسير الوحيد، الذي يمكن ان يفسر به الوجود، والاعتقاد الفطري في (الله) يلائم كل حركة من طبيعتنا، كما ان ميلنا للصلاة وخشوعنا أمام القوة الموحدة للأشياء يؤيد ان صدق فرض وجود الله.[٤]

فقد خلص بيرس إلى ان (الله) غير محدود العلم والقدرة فلا شيء يقاوم وجوده وهو فوق كل نظام ذهني ولكننا مرغمون على أن نتصوره في صورة الانسان إلى حد ما.[٥] ولا بد لنا ان نلاحظ بيرس قد وجد اللغة شديدة القصور للآن تصف الموجود اللامتناهي ولكنه نجح في تحاشي الوقوع في أحبولة الإله الساكن سكون الحقائق الهندسية. وقال بإله يستطيع الانسان ان يدخل معه في علاقة حيّة.[٦] أما فيما يتعلق بالنفس فـ (بيرس) قبل بالنفس

الموحدة، ولكنها نفس ذات وحدة أكثر تعقيداً من تلك التي قال بها ديكارت: من إن النفس وحدة غير منقسمة وذات شفافية فكرية،.[٧] أما في مسألة الخلود فأن بيرس لم يقرر رأياً ثابتاً فيها، ولكن بمضي السنين شدد أكثر فأكثر على مظاهر الكون الروحية بوصفها برهاناً على الخلود الشخصي، ولكنه لم يبلغ في هذا الاتجاه إلى الحد الذي يقول معه إن مثل ذلك البرهان قاطع.[٨] يوجز بيرس موقفه الفلسفي من الدّين فيقول: إن فلسفتي يمكن وصفها بأنها محاولة فزيائي أن يصور بصعوده الكون تصويراً لا يتعدى ما تسمح به مناهج البحث العلمي، مستعيناً في ذلك بكل ما قد سبقني إليه الفلاسفة السالفون، لكنني لن أصطنع في هذا طرائق الميتافيزقيين في الاستنباط الذي يقيمونه على فروض من عندهم، ويصلون به إلى براهين يصفونها بالصواب القطعي الذي لا يتعرض للتعديل على ضوء ما قد تكشف عنه البحوث العلمية فيما بعد. كلا، بل طريقتي هي طريقة العلم نفسها، وهي أن أقدم صورة للكون على سبيل الافتراض الذي ينتظر الاثبات على أساس ما قد يتكشف لنا من حقائق، ولذلك فهو يتميز أول ما يتميز بقابليته للصواب وللخطأ وفق ما تقدمه المشاهد لنا بعدئذ من شواهد.[٩] والواقع في رأي بيرس أن كل أفكانا شبيهة بالفروض العلمية .

وليم جيمس والتجربة الدينية :

وليم جيمس (١٨٤٢ـ ١٩١٠) فيلسوف مثالي وعالم نفس أميركي من الدعاة البارزين للذرائعية (البراعماتية)، كان أستاذاً في هارفارد (١٨٨١ـ ١٩٠٧)، لكنه عارض النظرة العامة المادية للعالم، وأقرّ بالاعقلانية ورفضه لفكرة الجدل، وكان على وعي في عيوب المنهج الميتافيزيقي. وكذلك أكد على تحليله للعقل الذي وصفه بأنه تيار الوعي، ودافع عن حق الاعتقاد بما لا يمكن إثباته أو التدليل عليه. من مؤلفاته : (مباديء علم النفس) عام ١٨٩٠، و(ضروب الخبرة الدينية) عام ١٩٠٢، و(الذرائعية) عام ١٩٠٧، وله بحوث في الفيزياء النظرية والفلكية وعلم نشأة الكون.[١٠] ان الأساس الذي أتخذه جيمس في تبريريه للعقيدة الدينية، وفي تقريريه لوجود جوانب في الطبيعة الانسانية، وكذلك تقرير لوجود (الله)، أساس يعتمد على التجربة الذاتية إلى حدّ كبير. لذا جيمس يدرس الدّين على انه واقع نفسي داخلي ويقيّمه على أساس نتائجه العملية وليس على أساس مصادره ومنابعه.[١١] وتتخذ عنايتة جيمس الموروثة بقضايا الدّين في فكره موضعاً مركزياً عبر كل حياته. وهكذا يقوم (1902) The Varieties of Religious Experience (التنوع في التجربة الدينية) بدراسة التجربة الدينية وظاهرة التصوف وفق تقويم تجريبي نهائي لشرعيتهما، وهذه العناية جعلته ينهمك في بحث نفسي (سيكولوجي)، في حين تقوم أعماله المتأخرة على التعددية الدينية كالتي تحدث عنها عام 1909 Pluralist Universe ، بعد ان شنّ هجوماً عنيفاً على الاحدية الميتافيزيقية التي يقرّها مثاليون مطلقيون من قبل (رويس وبرادلي)، بتطوير

ميتافيزيقا صوفية تعددية يقوم فيها إله متناه، ببعض أدوار إله لا متناه أو إله مطلق، بينما يترك لنا استقلالية تنكرها علينا الاحدية، وتتجنب الاعتذار إلى الشيطان تفرضه صحبته، الايمانية الارثوذوكسية. وقبل ان يكمل جيمس مذهبه الميتافيزيقي قد رحل.[١٢] لقد كانت هنالك جملة من العوامل التي دفعت جيمس إلى أبحاثه في الدّين هي: تربيته الدينية؛ وممارسته للأبحاث النفسانية Psychical Researches، وفي أثناء انشغاله بالتنويم المغناطيسي ودراساته السيكولوجية لحالات مرضية، فقد أوحت له هذه الأبحاث بنتائج تجريبية (أمبريقية) تتعلق بالنواحي الخفية للشعور الإنساني؛ وكذلك أيضاً من دوافعه في البحث الديني تأثره بالمذهب (الهيجلي الجديد) وبالأخص بالفيلسوف (جرين)؛ مما أدى لـ (جيمس) إنكار النتائج التي توصل إليها هذا المذهب فدفعه إلى تكوين رأي مستقل في الدين، فـ (جيمس) لم يبحث في العقائد الدينية كرجل دّين ولا كعالم في تاريخ الأديان وإنما بحثها كعالم سيكولوجي (نفسي)، وكذلك درس النزعات الدينية والوجدانات الدينية، والدوافع الدينية كلها دراسة سيكولوجية بحتة خالصة.[١٣]

فيما يتعلق بموقف البراغماتية من الدّين، فسنجد ان هذه المدرسة الفكرية تعمل على معالجة الدّين لا على أنه حق يجب الايمان به. بل على جانب من جوانب النفس الانسانية يمثل أحد رغباتها الهامة التي يجب أن تشبع عن طريق الإعتقاد، فموقف جيمس من الدّين هو، أليس القول بوجوب الحياد (يناقض الواقع)، في حين ان رغباتنا أو ميولنا النفسية تؤدي بنا إلى الإعتقاد قولاً وفعلاً في غاية من الحماقة ؟. أو ليس بانه لا يمكن أن تكون هناك صلة بين ميولنا النفسية وقوانا وبين القوى الموجودة في العالم مجرد يقين خاطئ لا دليل أو اثبات عليه ؟ وعليه فقد برهن التنبؤ المبني على الاتجاهات والرغبات النفسية على صحة نفسه في كثير من الأمثلة مثلاً أنظر إلى العلم فمن غير أن تكون لنا رغبات أو ميول نفسية تستدعي بالضرورة إنسجاماً رياضياً ومنطقياً في هذا العالم.[١٤] أي بمعنى انه لا يجوز الحجر على النفس الانسانية في أن تعتقد بما تشاء، بل على الأحوط لها أن تعتقد ولا تقف على الحياد حتى تأتيها الأدلة على صحة الإعتقاد. أما تعريف جيمس لكلمة الدّين، قائلاً: لقد دلت كلمة الدّين على كثير من المعاني في تاريخ الفكر الإنساني، ولكن حين أستخدمها الآن، أقصد بها ما هو فوق الطبيعة، مؤكداً بذلك أن ما يدعي بنظام الطبيعة الذي يتضمن عالم الخبرة (التجربة) ليس إلا جزءاً من مجموعة هذا الكون، وان هنالك وراء هذا العالم المرئي أو المشاهد عالماً آخر غير مرئي لا نعرف عنه الآن شيئاً ايجابياً، ولكننا ندرك أنه ليس لحياتنا هذه من قيمة(رغبة) إلا في علاقتها أو أرتباطها بهذا العالم. ويستطرد جيمس في القول: وليس للعقيدة الدينية عندي من معنى إلا الإعتقاد في وجود نظام خفي غير مرئي، يمكن أن توجد فيه حلول لطلاسم ذاك النظام الطبيعي.[١٥] فإن جيمس قد أقرّ هنا بأن

الإعتقاد هو عنصر أساسي في طبيعة الإنسان. وهذا يعني إعطاء الإنسان الحق بالإعتقاد والايمان به، وكذلك يجعل جيمس الميول الفردية وسيلة من وسائل الإقناع، قائلاً: من ذا الذي يحق له أن يمنعنا من أن نعشق في ميولنا ورغباتنا ومطالبنا الدينية ونصدّقها؟ ليس للعلم، كعلم أن يزعم هذه السلطة لنفسه، لأنه لا يتحدث إلا عن الموجود بالفعل، وليس له علاقة بغيره؛ وأما قول اللاأدريين بهذا الصدد فيقولون: ليس لك أن تعتقد من غير أن تكون لك أدلة حسية قاطعة. أي فليس إلا تعبيراً (لكل امريء الحق في أن يقوله) عن إتجاه خاص وميول أو رغبة شخصية في أدلة من نوع خاص.[١٦] هكذا يجعل جيمس مهمته قائمة ومستندة على قدرة الإقناع. من ان القول بوجوب الإمتناع عن الإعتقاد خطأ لا يجوز التمسك به، سواء كان القائلون بوجود الحياد علميين أو لاأدريين، لأن مبررات موقفهم هذا لا يقوى على الصمود. أما فيما يخص تصور جيمس عن (الله) : ربما يختلف تصورنا عن الله (جل جلاله)، عن تصور جيمس الذي أكد في محاضرته الثامنة في كتابه (البراغماتية) على أن المطلق ولا يشترك مع (الله) المتصف بصفة الربوبية إلا في خصيصة الفوق بشرية، فيقول وبناءاً على الأسس البراغماتية : إذا كان فرض (الله) يعمل على إكفاء ورضا في أوسع معاني الكلمة، فهو فرض صحيح، ومهما تكون الصعوبات المختلفة منه، فالخبرة تومييء إلى أن الفرض يعمل على إكفاء ورضا، ما في ذلك أدنى شك، وأن المشكلة هي في بنائه وتجديده وتصميمه وإنجازه بحيث يلتحم التحاماً يتسم بطابع الكفاية والارضاء، وذلك لأن البراغماتية لا تنبذ أي فرض إذا كانت النتائج المفيدة للحياة كامنة فيه.[١٧] فإن فكرة (الله) هي التي تجعل لنظرتنا إلى الكون إتساعاً وعمقاً واقتراباً منا، فيقول جيمس في هذا: أنني أنكر، بحزم وبقوة، من أن تجربتنا البشرية هي أسمى أشكال الخبرة (التجربة) الموجودة في هذا الكون. ومن ثمّ فانني أومن وأعتقد أننا نقف على مستوى واحد، في وضع من نفس العلاقة مع الكون برمته حيث يشبه نفس الوضع الذي تقف فيه ذوات المخلب والناب والسنوريات بالنسبة للحياة الإنسانية برمتها.أي انها تسكن معنا في غرفنا وبالتالي هي تسهم في مشاهد وأحداث لا تفهم من مغزاها هسيساً وأنما هي بمثابة ظل التماس فحسب بالقياس إلى منحنيات تاريخ تمر علينا بداياته ونهاياته وأشكاله مروراً عابراً بالكلية فيما مدى أدركها. ويسترسل جيمس في القول: فلا مانع علينا من أن نعتقد، إستناداً إلى البراهين التي تقدمها لنا الخبرة الدينية، أي أن هناك قوى عليا فوقية موجودة، انها تعمل لكي تنقذ العالم وتنجيه على منوال شبيه بمنوالنا.[١٨] أما عن وجود (الله) فيقول جيمس: لا أريد أن أدخل في موضوع جدلي حول وجود (الله)، بل لابد من أن أتخذ مكانة أكثر تواضعاً من تلك المكانة، وأحصر مطامعي وآمالي في محاولة تبيّن من أن الإله هو نوع من الكائنات، الذي إذا وجد فعلاً لابد من أن يكون أكثر الموضوعات الممكنة مناسبة لأن تدركه عقول مثل عقولنا أي على أنه

أصل لهذا العالم ولما فيه. وبعبارة أخرى أريد أن أقول ان بعض الطبائع الخارجية عنا المتصفة بكل ما ينبغي أن يتصف به الإله من صفات لابد أن تكون هي الموضوع المطلق المعقول ذاته والذي تمكن العقل الإنساني من ادراكه.[١٩] فـ (جيمس) لم يتحدث عن صفات (الله) ـ أقصد هل هو قديم أو حادث كما تحدث عنه فلاسفة الاسلام ـ بل أراد أن يبيّن لنا ان الإله هو نوع خارق من الكينونة أو هو الكينونة العظمى. إذ يؤكد جيمس من ان مسألة وجود (الله) هي نوع من الإعتقاد أي ليس عليها دليل منطقي لأنه فوق المنطق ووسائله المحدودة. لكن لنا الحق في الايمان بوجود (الله)، أما فيما يتعلق بكثير من صفات (الله) وبمقدارها وبعلاقة بعضها ببعض، فقد تعددت فيه الآراء وكثر حوله الجدل. فـ (جيمس) يعتبر كل البحث في هذا الأمر مضيعة للوقت والجهد. قائلاً: لأن كل واحد من الكيفيات التي يظهر بها الرّب أو الإله نفسه لعباده، ومن مدى عنايته وقدرته وعلاقتهما بما لنا من حرية واختيار، ومن نسبة رحمته لعدله، ومدى مسؤوليته عن الشر، ومن علاقته الميتافيزيقية بعالم الحوادث: أهي علية، أو جوهرية، أو مثالية، لأن كل واحد من المذكورات، ليس إلا من الموضوعات المذهبية الإعتقادية التي تختلف حولها الأفهام البشرية، لصفات (الله).[٢٠]

أعتقد جيمس ان فكرتنا عن (الله) والانسان من طبيعة واحدة، وان الاختلاف يكمن في الدرجة فحسب، أما في الانسان هنالك جزء خاطئ ناقص وجزء سام، أما(الله) فهو السموّ كله. والجزء السامي الانساني مرتبط بالوجود السامي الإلهي. من حيث ان (الله) أعلى مراتب العلوّ والسموّ. وعلى الأجدر على الانسان لا أن يَصعد إلى (الله) أو يقترب منه كما يرى التصوف بل على الانسان أن يحقق كماله الإنساني وسموه بمساعدة (الله) أي بمعنى أن يتغلب الجزء الطيب في الانسان على الجزء السيء لكي يزول أثر النقص فيه.[٢١]

فـ (جيمس) يعرّف الإله : بأنه قوة عالمة مدركة مغايرة لقوانا، ولا تتوجه نحو ما هو خير فحسب، بل ان الخير أيضاً في مفهومها.[٢٢] يتصور جيمس (الله) على انه سرّ هذا الكون وليس خارج عنه، أو هو من يتحدث عنه أحياناً كما لو كان الحقيقة المثالية الباطنة في صميم الأشياء والموجودات، وما دام (الله) هو الجانب المثالي من الأشياء، فإنه لا يمكن أن يحوي كل الأشياء أو أن يشمل في وجوده جميع الموجودات. ولكن ان (الله) لا يخلق الأشياء من الخارج، بل نقول من الممكن ان الأشياء في جنبها المثالي تكون جزءاً من صميم وجوده.[٢٣] إنما الإله الذي يحتاجه كل منا، فيتصوره البعض منا معزياً، والبعض الآخر منذراً ومعاقباً، تبعاً لحالتهم وحاجاتهم النفسية، فهو بالطبع إله متناه نحن أجزاء باطنة منه، وكذلك هو نفسه جزء من هذا العالم أي بمعنى ان العالم لا معنى لوجوده، من غير (الله) التام الكامل، وبين كمال (الله) الخلقي ونقصنا هناك درجات من الكمال متمثلة في أرواح أخرى. وفي القول بإله متناه تفسير يسير لإمكان حدوث الشر، وحافز لميل الحرية

نحو الخير ما دام (الله) هو الذي يحدد مصائر الكون.[٢٤] فـ (جيمس) يؤمن بنزعة فائقة للطبيعة لأنه يرى: من ان هناك معجزات تعبّر عن تدخل (الله) في صميم النظام الطبيعي بطريقة مباشرة. اذن فالعالم المثالي كثيراً ما يتدخل بطرق مفاجئة في صميم العالم الواقعي، على أن (الله) كثيراً ما يغيّر من مجرى التاريخ بين جين وآخر. وإذا كانت هناك فكرة تتجلى فيما يترتب على هذه الفكرة من نتائج عملية جزئية، أفلا يكون من الصواب أن نقول إن وجود (الله) إنما يتجلى بشكل واضح في تلك المعجزات التي تظهر لنا بين الحين والآخر على عمل (الله).[٢٥] بالتأكيد من هذه المعجزات هي أكبر مظهر على وجود الحرية في العالم. ولكن جيمس يتصور (الله) أو الإله من انه ليس مجرد صديق أو معين، بل هو رفيق أو صديق كثير المطالب ودائب الحاجات، لأنه يفرض علينا دائماً وأبداً واجبات جديدة، ومهمات كثيرة، باعثاً فيما حولنا جوّاً من العواصف والمخاطر وكذلك من شأنه دائماً أن يشحذ هممنا، وأن يوقظ فينا أعلى الهمم والإمكانيات وأسماها وافضلها.[٢٦] وذلك هو قرين مفهوم الوعد والوعيد عند فلاسفة الاسلام ومتكليميهم، ولا سيما المعتزلة.

أما اهتمام جيمس بالصلاة: فأعتبرها أي الصلاة في كونها وسيلة إتصال روحي مع (الله)، لذلك عدّها أبرز الأفعال الدينية بلا منازع وبذلك تستلزم الاقتناع بأن بعض الأحداث تقع بفضل موجود أسمى وأعلى منا وكذلك من عالمنا المحدود، قد تتحقق أما في أنفسنا أو خارج أنفسنا، وهي أحداث لا يمكن ان تنشأ عن هذا العالم.[٢٧] أي ان الصلاة هي نوع من أنواع العلاقة الداخلية أو بعبارة أخرى هي المحادثة الباطنية مع قوة إلهية مقدسة.[٢٨] والصلاة هي دليل على الايمان أو الإعتقاد الفطري الذي يلوّح على انه لا ينفصل عن الإفتعال الديني. اذن فالمتدين يعد نفسه كأنه متصل بوجود أسمى وأعلى يمكن أن يتصل به إتصالاً أوثق، فيشيع في نفسه سلاماً وأماناً وسروراً وفرحاً وقوةً لا يمكن للمتديّن أن يمنحها لنفسه.[٢٩] وللصلاة عند جيمس تؤدي إلى نتائج، فيقول: إننا بالصلاة نشاهد أو نرى قوى غير مرئية وكذلك نرى أثراً لها في حياتنا اليومية. حقاً كل هذا شيء ذاتي ولكن لا ننسى من أن الدين يجب أن يقوم أو يزول بالإقتناع بأن آثاراً من نوع ما تحدث فعلاً.[٣٠] وكذلك اهتم جيمس بالتجربة الصوفية، أي تلك المقامات والأحوال التي تشعر فيها الذات (النفس) بإتحادها بـ (الله)، فهناك من الأشخاص من يشعر بإتحاده بـ (الله) كما يشعر بإنتقال مركز نشاطه الشخصي كنتيجة لهذا الاتصال، ولا يمكن مع ذلك أن تعتبر الأحوال والمقامات الصوفية إنحرافات للإنفعال الديني، فهي في صميمها صورة سامية أي عرفانية، ولهذا الشعور بكبرياء الكائن الناشيء من اتحاده بكائن أعظم منه والمرتبط بالدّين الذي نحياه.[٣١] يرى جيمس أن التجربة الدينية هي قطعة حيّة من الواقع وأنها تجمع بين القلق والخلاص: أي القلق من العالم الأرضي أو السفلي، والخلاص يستبان في طموح الأنا إلى ما هو أعلى وأسمى. ولكن

الانسان يعيش على الأرض ويتطلع إلى السماء، وفي هذا دفع لعجلة التقدم والتطور وإذكاء لحيوية الناس، وبث روح الأمل في نفوسهم أي الناس.[٣٢]

هكذا تميّز جيمس، عن سائر فلاسفة البراغماتية في وقوفه، عند العامل الروحي وكذلك لبيان أهميته في الحياة، لا سيما تلك الموضوعات التي اختلف بصددها فلاسفة المادية، والمثالية، والوجودية، والظاهراتية، في القرن العشرين.

موقف جون ديوي من الدّين (١٨٥٩ ـ ١٩٥٢):

ولد في مدينة برلنغتون في ولاية فارمونت وتوفي في مدينة نيويورك. فهو فيلسوف وعالم نفس أميركي. وكذلك هو رائد علم تربوي قائم على البراغماتية. فـ (ديوي) يعتبر الذكاء ليس سوى أداة في عداد أدوات أخرى، من حيث انه عامل من عوامل النجاح، وقد قام بتأسيس مدرسة في شيكاعو حيث كانت بمثابة مختبر وأسمها، المدرسة الاعدادية الجامعية، في عام (١٨٩٦ ـ ١٩٠٤)، حيث قام بإعداد أطفال من سنة السادسة عشرة. وقد أثر منهجه القائم على المشاريع، على فرينيه، وعلى المنهج السوفياتي في إقامة المجتمعات، ومن مؤلفاته: قانون الايمان التربوي سنة (١٨٩٧)، والمدرسة والمجتمع سنة (١٩٠٠)، والديمقراطية والتربية سنة (ؤ١٩١٦). وغيرها من المؤلفات.[٣٣] وقد كان ديوي يسترشد في كل كتاباته بفكرة معينة وهي من ان الفلسفة مهمتها إنسانية قلباً وقالباً، وعلينا أن نحكم عليها في ضوء تأثيرها الاجتماعي أو الثقافي أو التربوي. والتفلسف حسب رأيه، ليس سوى طريقة من طرق السلوك الانساني، وينبغي علينا أن نقدر قيمته على أساس قدرته على مواجهة الظروف التي كانت هي ذاتها مصدر شأنه. وعليه فأن الفلسفة ما دام مرتبطة بالثقافة فيجب عليها أن تسهم في حل جميع مشكلات الثقافة والمجتمع.[٣٤] يمكن أن نطلق على فلسفته بأسم (فلسفة الذرائعية) التي هي فرع من فروع الفلسفة البراغماتية أو العملية. ويعتبر ديوي الفكر خادماً للحياة في أصل نشأته؛ فالناس برأيه لا يفكرون مادامت حياتهم سهلة، ولكنهم يضطرون إلى التفكير اضطراراً إذا هم هموا بفعل أمر من الامور، فحال دون هذا الأمر أي حائل.[٣٥] والذرائع أو الذرائعية هي التي تقرر أن الأفكار والمعارف والنظريات والنتائج والغايات هي وسائل أو أدوات أو ذرائع لبلوغ أهداف جديدة، وكذلك لتوضيح وتعديل المعايير والغايات في ضوء الخبرات المتراكمة للفرد والمجتمع.[٣٦] اذن ذرائعية ديوي لا تهين الفكر، بل تردّ للفكر اعتباره. تعرّض ديوي للدّين وذلك من خلال مذهبه الذي يصفه البعض بأنه (مذهب طبيعي)، وهو مذهب ينفي وجود ما فوق الطبيعة، أي فلا غرابة أن يهاجمه غلاة المتديّنين، وبالأخص الذين يعتمدون في مذهبهم الديني على سلطة الكنيسة أشد اعتماد. وخاصّة الكاثوليكية الذين عرفوا بعدائهم للمذهب الطبيعي.[٣٧] فـ (ديوي) رفض الميتافيزيقا، بإعتبارها صدى لعلم اللاهوت المتخفي وراؤها، وذلك بإعتبار ديوي فيلسوف طبيعي، وهو

في هذا يحذو حذو (بيكون) و(هوبز) و(سبنسر) و(مِل). ويعتقد ديوي ان مشكلة الفلسفة كانت وما زالت أبحاثها تختلط بالأبحاث الدينية.[٣٨] ما دام ديوي محتقراً للميتافيزيقا، فقد كان خليقاً به أن يهاجم الدّين وما له من سلطان على عقول الغرب؛ إلا أن الميتافيزيقا كانت بوجه عام هي موضوع هجومه، ويعود ذلك لسببين مختلفين: السبب الأول هو أن التفكير الميتافيزيقي لا يبدي أي اهتمام في واقع الأمر بما يتصل بسيطرة الانسان على الطبيعة سيطرة عاقلة، أما السبب الثاني لهجومه على التفكير الميتافيزيقي لأنه يبدي اهتماماً كبيراً ببعض الأمور لكنه اهتماماً يزيد من الأمر سوءاً؛ وهو في رأيه يعوق البحث العلمي وكذلك يغلق عقول الناس دون ما في العلم الطبيعي من إمكانات كامنة.[٣٩]

هدف ديوي الذي كان يدعو اليه هو أن يفرق بين الدّين والتديّن: فالدّين في رأيه هو قوة عليا غير منظورة، من قبيل الغيب، وما كان كذلك فلا سبيل لنا إلى معرفته، وإنما فقط نعرف أشخاصاً متدّينين، وكذلك لهم تجارب دينية، ويظهر في أخلاقهم مظاهر معينة من أداء شعائرهم وطقوسهم الدينية. أما التدّين حسب رأيه هو ظاهرة اجتماعية خاضعة للثقافة والحضارة، أي فكل شخص يولد في مجتمع له دّين وكذلك له طقوس وكنيسة، بالطبع لا ينظم الشخص إلى الكنيسة، ولكنه يولد وينشأ في جماعة لها وحدتها الاجتماعية ونظمها وتقاليدها الخاصة بها، وكذلك يرمز إليها ويحتفل بها في طقوس وعبادات وعقائد تصدر عن ديانة اجتماعية.[٤٠] يرى ديوي أن المثل الأعلى للمجتمع الديمقراطي هو أن يتعاون البشر فيما بينهم، أي كما يتعاون العلماء مع بعضهم البعض في المعمل، وهذا التعاون هو الدّين في جوهره، أي فالايمان الحق إنما هو إيمان يكشف لنا عن الحقيقة التي تحل محل ما يتعارض الانسان من صعاب، الايمان بالحق إيمان بمنهج يساير التفكير وكذلك يساير الحياة العملية مسيارة تعمل على إزدهار تلك الحياة ورخائها، لا إيمان بحقيقة ثابتة كالتي عرفناها بالوحي معرفة لا تقبل التغيّر ولا النمو. و(الله) هو هذه العلاقة بين الانسان ومثله العليا، أي يحاول تغيير أوضاع الحياة على مقتضاها.[٤١] فـ (الله) يمثل توحيد القيم المثالية. من الواضح أن ديوي يرفض قبول فكرة الإله المنفصل عن هذا العالم باعتباره ما دام يرفض كل الثنائيات، ولكنه يقبل بفكرة الإله باعتباره المُثل العليا الذاتية للتجربة الانسانية والمستمدة منها، ولكن عنده التجربة الدينية حقيقة واقعية، وكذلك انها تعيد للنفس الانسانية الأمن والأمان والسلام. والتجربة الدينية مستمدة من ثقافة المرء ومن جملة العقائد التي تلقاها.[٤٢]

أما الدّين الذي كان يدعو إليه ديوي فهو دّين الإنسانية. وقد كان إنسانياً بكل معنى الكلمة، وكذلك كانت فلسفته إنسانية تشبه ما كان يدعو أليه (شلر)، ولذلك سلكهما جيمس في سلك واحد ووصف مذهبهما بالمذهب الإنساني. حيث يقول ديوي: نحن الذين نعيش الآن أجزاء من إنسانية تمتد جذورها إلى الماضي السحيق، وهي إنسانية قد تفاعلت مع

الطبيعة. ولكن مسؤوليتنا هي حفظ تراث القيم الذي تلقيناه، حتى يتسنى لخلفنا أن يتسلمه أكثر أمناً وأعظم إنتشاراً مما تلقيناه. وفي كل هذا تقوم جميع العناصر لإيمان دّيني لن يقتصر على فرقة أو طبقة أو جنس. ولقد كان لمثل هذا الإيمان في صميم القلوب الإيمان المشترك لبني الفرد. واليوم يبقى هذا الإيمان المشترك ينتقل من السر إلى العلن ويتخذ طريقه إلى التحقيق.[٤٣] بالطبع هذه الأفكار ليست جديدة، لأن الأسلام هو دّين الإنسانية، وهو الدّين العام الذي يفسح المجال للتطور والنمو وكذلك يدعو إلى التفكير والتأمل العقلي.

الخاتمة :

قادنا البحث في هذا الموضوع إلى الخروج بجملة نتائج نوردها للقراء الافاضل كما يأتي:

١. تعد التجربة الدينية في الفلسفة البراغماتية، مبحثاً مهماً من مباحث الفكر الانساني. أي انها هي التي تتحكم في الانسان وتؤثر في شخصيته وحياته ككل.
٢. تعالج الفلسفة البراغماتية الدّين لا على انه حق يجب الايمان به، بل انه جانب من جوانب النفس الانسانية الذي يمثل أحد رغباتها الهامة والتي تشبع عن طريق الاعتقاد.
٣. خلص بيرس إلى ان الله غير محدود العلم والقدرة، أي ان ليس هناك شيء يقاوم وجوده ومع ذلك هو فوق كل نظام ذهني ولكننا مجبرون على ان نتصوره في هيئة الانسان إلى حد ما.
٤. جيمس يدرس الدّين على انه، ايقاع داخلي(سيكولوجي)، أي على انه حركة تعتمد على الذاتية إلى حدّ كبير، وبالتالي يقيّمه على أساس نتائجه العملية، وليس على أساس مصدره ومنبعه. كذلك يعتقد جيمس ان الله يعيننا ولكنه في حاجة الينا كما نحن في حاجة اليه. وايضاً اهتم جيمس بالصلاة باعتبارها دليل على الايمان بقدرة الموجود الأعلى، واهتم كذلك بالتجربة الصوفية التي تشعر فيها الذات باتحادها بـالله.
٥. الدّين عند ديوي هو: قوة عليا غير منظورة، من قبيل الغيب، وما كان كذلك فلا سبيل لنا إلى معرفته، وإنما فقط نعرف أشخاصاً متّدينين، وكذلك لهم تجارب دينية، ومن خلال أداء شعائرهم وطقوسهم الدينية سوف تظهر مظاهر معينة على أخلاقهم. أي ان الدّين الذي كان يدعو اليه فهو دّين الانسانية.

الهوامش:

١ ـ ينظر موسوعة أعلام الفلسفة (العرب والأجانب) : قدم له، الرئيس شارل الحلو، إعداد، روني إيلي ألفا، مراجعة، جورج نخل، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٩٩٢، ص٢٩٧ـ٢٩٨.

٢ ـ ينظر يحيى هويدي: مقدمة في الفلسفة العامة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٩، ص١٥٦.

٣ ـ ينظر زكريا ابراهيم: دراسات في الفلسفة المعاصرة، الناشر، مكتبة مصر للطباعة، ١٩٦٨، ص٣١.

٤ ـ ينظر كميل الحاج: الوسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت ـ لبنان، ط١، ٢٠٠٠، ص١٣٦ـ ١٣٧.

٥ ـ ينظر خلف الجراد: معجم الفلاسفة المختصر، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت . لبنان، ط١، ٢٠٠٧، ص٥٨.

٦ ـ ينظر الموسوعة الفلسفية المختصرة: نقلها عن الانكليزية، فؤاد كامل وآخرون، راجعها وأشرف عليها، زكي نجيب محمود، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة،١٩٦٣، ص١٠٥.

٧ ـ ينظر فؤاد كامل: أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٣، ط١، ص١٠٣ـ ١٠٤.

٨ ـ ينظر فؤاد كامل: أعلام الفكر الفلسفي المعاصر، ص١٠٤.

٩ ـ ينظر زكي نجيب محمود : نافذة على فلسفة العصر، كتاب العربي، سلسلة فصلية تصدرها مجلة العربي، الكتاب السابع والعشرون، الكويت، ١٩٩٠، ص١٢٩.

١٠ ـ ينظر الموسوعة الفلسفية: بإشراف، م. روزنتال و ب. يودين، ترجمة، سمير كرم، مراجعة، صادق جلال العظم و جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان ، ط٥، ١٩٨٥، ص١٧٣ـ ١٧٤.

١١ ـ ينظر موسوعة أعلام الفلسفة (العرب والجانب) : قدم له، الرئيس شارل الحلو، إعداد، روني إيلي ألفا، مراجعة، جورج نخل، ج١، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٩٩٢، ص٣٧٧.

١٢ ـ ينظر تدهوندرتش: دليل أكسفورد للفلسفة، ج١، ترجمة، نجيب الحصادي، تحرير الترجمة، منصور محمد البابور ومحمد حسن أبو بكر، مراجعة اللغة، عبد القادر الطلحي، الجماهيرية العربية الليبية الاشتراكية العظمى، طربلس، ٢٠٠٣، ص٢٦٤.

١٣ ـ ينظر محمود زيدان: وليم جيمس،نوابغ الفكر الغربي، دار المعارف بمصر ـ القاهرة، ١٩٥٨، ص١٣٧ـ ١٣٨.

١٤ ـ ينظر وليم جيمس: إرادة الإعتقاد، ترجمة، محمود حب الله، دار احياء الكتب العربية، ١٩٤٦، ص١٣١.

١٥ ـ ينظر وليم جيمس: إرادة الإعتقاد، ترجمة، محمود حب الله، ص١٢٧ ـ ١٢٨.

١٦ ـ ينظر وليم جيمس: إرادة الإعتقاد، ترجمة، محمود حب الله، ص١٣٢.

١٧ ـ ينظر وليم جيمس: البراغماتية، ترجمة، محمد علي العريان، تقديم، زكي نجيب محمود، الناشر دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥، ص٣٤٧ ـ ٣٤٨.

١٨ ـ ينظر رسل، برتراند: حكمة الغرب، ج٢، ترجمة، فؤاد زكريا، عالم المعرفة (٧٢)، الكويت، ١٩٨٣، ص٢٤٩.

١٩ ـ ينظر وليم جيمس: العقل والدين، ترجمة، محمود حب الله، دار احياء الكتب العربية، ١٩٤٩، ص٨٥.

٢٠ - ينظر وليم جيمس: العقل والدين، ترجمة، محمود حب الله، ص٩٠.

٢١ - ينظر محمود زيدان: وليم جيمس، نوابغ الفكر الغربي، ص١٧٨.

٢٢ - ينظر وليم جيمس: العقل والدين، ترجمة، محمود حب الله، ص٩٠.

٢٣ - ينظر زكريا ابراهيم: دراسات في الفلسفة المعاصرة، دار مصر للطباعة، ١٩٦٨، ص٥١.

٢٤ - ينظر يوسف كرم: ، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، ١٩٦٠، ص٤٢٢.

٢٥ - ينظر زكريا ابراهيم: دراسات في الفلسفة المعاصرة، ص٥١ ـ ٥٢.

٢٦ - ينظر زكريا ابراهيم: دراسات في الفلسفة المعاصرة، ص٥٢.

٢٧ - ينظر أميل بوترو: العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، ترجمة، أحمد فؤاد الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ـ بيروت، ١٩٧٣، ص٢٤٥.

٢٨ - ينظر محمود زيدان: وليم جيمس، ص١٨١.

٢٩ - ينظر أميل بوترو: العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، ترجمة، أحمد فؤاد الأهواني، ص٢٤٦.

٣٠ - ينظر كامل محمد محمد عويضة، وليم جيمس (رائد المذهب البراغماتي)، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٩٩٣، ص١٦٦.

٣١ - ينظر أميل بوترو: العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، ترجمة، أحمد فؤاد الأهواني، ص٢٤٦.

٣٢ - ينظر محمد فتحي الشنيطي: الفلسفة الحديثة والمعاصرة، مكتبة القاهرة الحديثة، ط١، ١٩٦٨، ص١٠٥.

٣٣ - ينظر قاموس الفلسفة: وضعه، ديديه جوليا، ونقله إلى العربية، فرنسوا أيوب وآخرون، مكتبة انطوان ـ بيروت، ودار لاروس ـ باريس، ط١، ١٩٩٢، ص٢٢٨ ـ ٢٢٩.

٣٤ - ينظر خلف الجراد: معجم الفلاسفة المختصر، ص٩٤ ـ ٩٥.

٣٥ - ينظر أ. وولف: فلسفة المحدثين والمعاصرين، نقله إلى العربية أبو العلا عفيفي، سلسلة المعارف العامة، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة والنشر، ١٩٣٦، ص١٦٧.

٣٦ - ينظر عبد المنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، الناشر، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٠، ص٣٦٧.

٣٧ - ينظر أحمد فؤاد الأهواني: جون ديوي، نوابغ الفكر الغربي، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٥٩، ص١٣٩.

٣٨ - ينظر كميل الحاج: الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، ص٢٤٦.

٣٩ - ينظر الموسوعة الفلسفية المختصرة: نقلها عن الانكليزية، فؤاد كامل وآخرون، راجعها واشرف عليها، زكي نجيب محمود، ص١٥١.

٤٠ - ينظر أحمد فؤاد الأهواني: جون ديوي، نوابغ الفكر الغربي، ص١٣٩ ـ ١٤٠.

٤١ - ينظر زكي نجيب محمود: حياة الفكر في العالم الجديد، مكتبة الانجلو المصرية، ص٢١٥ـ ٢١٦.

٤٢ ـ ينظر أحمد فؤاد الأهواني: جون ديوي، نوابغ الفكر الغربي، ص١٤٠.

٤٣ ـ ينظر أحمد فؤاد الأهواني: جون ديوي، نوابغ الفكر الغربي، ص١٤١.

Abstract

The Religions experience according to the pragmatic philosophy. These researches show the raglan experience in three philosophers, pierce, James, Dewey. And also deal with the pragwutic philosophy and his up from evectional with aphis subject. It this faith of the men in goa.